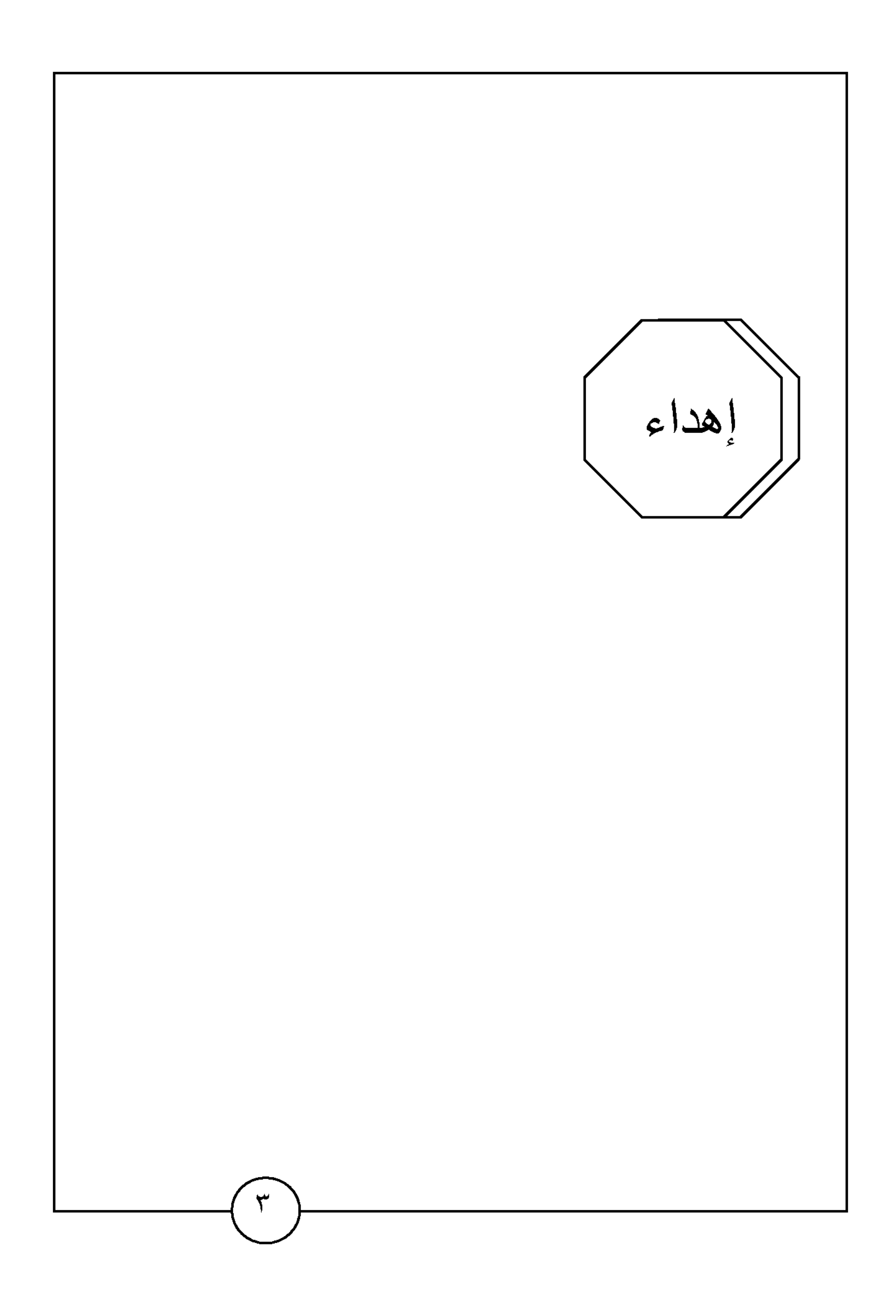
~قصص قصيرة ~

شهد وأخواتها

بقلم
أحمد زلط

الطبعة الأولى
دار هبة النيل (القاهرة ٢٠٠٧م)



إهداء
٣

استهلال لابد منه

....

....

أنا شاهدُ المذبحهْ

وشهيدُ الخريطهْ

أنا ولدُ الكلمات البسيطهْ

رأيتُ الحصى أجنحهُ

رأيت الندى أسلحه

عندما أغلقوا باب قلبي عليَّا

وأقاموا الحواجز فيّا

ومنع التجوّل

صار قلبي حارهْ

وضلوعي حجارهْ

وأطلَّ القرنفل

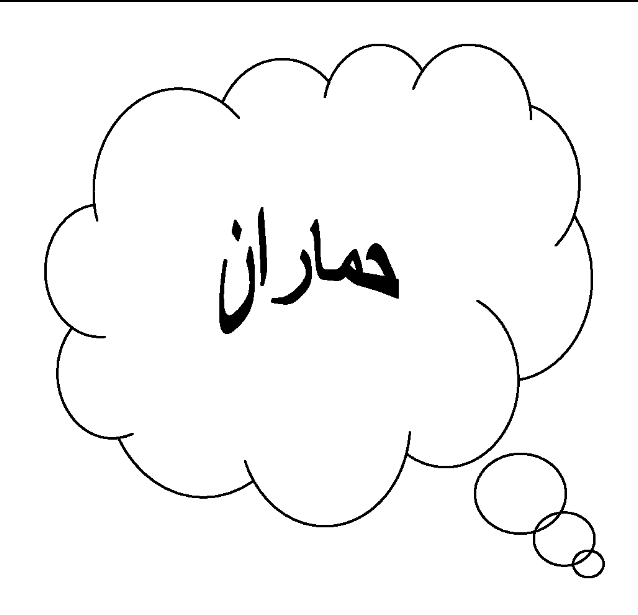
وأطلَّ القرنفل

....

" مقطع من قصيدة الأرض لمحمود درويش"

*   *   *

٥



(١)

.. عند حافة الحقل ارتفع نهيق الحمار ، ربما يعلن بنهيقه ضرورة إشباع غريزة الجوع ، استمر الحمار يزعج بصوته النكير كل المحيطين به ، لم يعبأ صاحبه به ، انشغل في تعبئة صندوق العربة التي سيجرها الحمار .. حسناً ، إنها حمولة لا بأس منها من روث البهائم .. الروث – الآن – يباع هو الآخر !.

٧

(٢)

أحكم صاحبنا ربط العربة بالحمار وأمسك بالمقود ، بدأ يلهب بعصاه مؤخرة الحمار ، يحثه سرعة التحرك تجـــاه مـــدخل القرية الغربي حيث تجارة الروث ، اضطر الحمار للامتثال من وخز الألم .. الأنفاس تعلو والسرعة تزداد ، الوقت مـــن ذهب والروث المباع خلال اليوم ، بل المزيد منه مآله الذهب التراب ! الحمار يقترب بحمولة العربة التي يجرها وصاحبها قبيل مكان البيع بأمتار قليلة.

(٣)

تسمر الحمار مكانه ، كان صاحبه يغني ، حشرجة غنائيـــة شعبية كان يصدرها أشبه بنهيق حماره ، الحمـــار لا يـــزال واقفاً ، بدأ صاحبنا السب والشتم والضرب المبرح .. الحمار يتوقف تماماً عن الحركة أو المسير .. بدأ صـــاحبنا تكثيفـــه المستمر في ضرب الحمار ، ومن بشاعة الضرب ، تحـــرك الحمار خطوة واحدة من مكانه ، لكنها الحركـــة الأخيـــرة ، سقطت قوادمه في حفرة أمامه .. انقلبت العربة وغطى روث الصندوق صاحبنا ، تكوم داخل بركة طرية شبه سائلة مـــن سماد الحيوان ، لاحظ بعض المارة حادثة السير ، هم من

تجمع منهم برفع صندوق العربة ، أخرجوا صاحبنا من وسط الروث حيث غطته الأوساخ ، وبعد مجهود طويـــل رفعـــوا الحمار المصاب أيضاً إلي خارج الحفرة .

(٤)

نظف بعض الحضور وجه صاحبنا ، بدأ يحدق حواليه فـــي خزي وقال وهو يلطم خده كالنساء :

– مصيبة يا ناس الحمار مكسور وتعبي مهدور . فجأة رفع الحمار رأسه ومد أذنيه ، ثم أطال النظر في وجه صـــاحبه ، كأنما الشرر يخرج من عينيه و.. لحظتها قال صاحبنا فـــي خزي اكثر :

– لقد فهمت – الآن – سر وقوف الحمار وعنـــاده ، ليتنـــي فهمت مثلما فهم .. الآن خسرت كل شيء.

***



.. صاحت ملكة ورود الأبصال في مجموع شجيرات البصل البلدي بجوارها فوق مسطح أرض الحديقة :

مهما طالت مدة إخضراركم فمصيركم بعد حين الذبول والجفاف ، أما أنا وفصيل أبصالي فلنا الخضرة الدائمة و.......

أجابت من فورها أكبر شجيرة بصل بلدي وقالت لها :

– يا عزيزتي : معك الحق أن أوراقي وساقي مصيرهما الذبول .. لكنك تتجاهلين ثمرتي المفيدة المغروسة في الطين ...

بادرت وردة الأبصال الرد في دهشة ومرح :

– إذا كانت ثمرتك في الطين ، فإن ورودي الحمراء والصفراء بل من كل لون تحدق في الشمس .. زنابقي الملونة العجيبة هي المتعة والبهاء والجمال ...

ردت شجيرة البصل البلدي تهمس في إلى جارتها :

– كفاك غروراً .. أين نفعك أو خيراتك ؟! زنابقك تنقضى بعد فترة، بينما البصل في كل يوم ، الأخضر واليابس فوق كل الموائد .. بل في صناعة الدواء و.... قاطعتها وأجابت شجرة ورود الأبصال في دهاء .

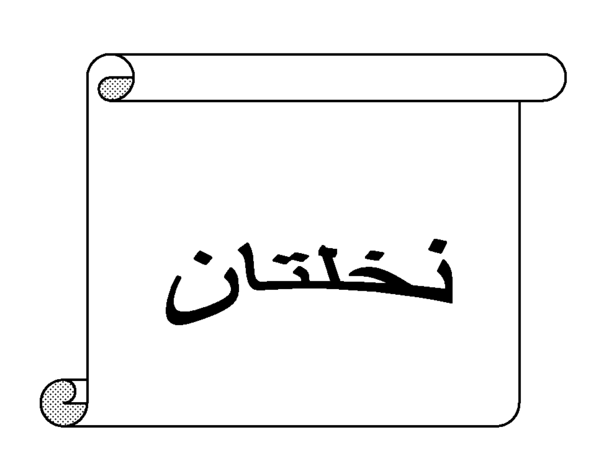
– ألواني مرة أخرى!. : هي بهجة للعين ، أما أنت فسيالة للدموع !

حسمت شجيرة البصل البلدي الأمر وهي تفحم جارتها :

إنما الأبصال بحق هي دائمة النفع لسائر العالمين.

***

١٢



قالت شجرة نخيل التمر لجارتها شجرة نخيل الزينة :

لم أنت الأغلى ثمناً دون كل أشجار الحديقة ؟..

ردت شجرة نخيل الزينة في استعلاء وخيلاء :

– الغالي ثمنه فيه ، فأنا من فصيلة نباتيه راقيـــة ورتبـــة عالية ، و...

قاطعتها شجرة نخيل التمر البلدية في ثقة وقالت :

– لقد نسيت أننا من أصل واحد ، بل أنا الأصل الأقدم ، قبل

أن يبعث بنا سعار الهندسة الوراثية و...

ضحكت شجرة نخيل الزينة .. تمايلت فروعها الناعمة الرقيقة ، بل الأكثر خضرة وخلواً من الأشواك والعشاش وقالت :

– لا يهمني التلاعب الهندسي هذا ، فأنا ملكة النخيل ، مكاني فقط هو المميز في حدائق الأمراء والأثريـــاء ، وأتواضـــع أحياناً فأكون في الحدائق الدولية المميزة .. أما أنت فـــ.....

ردت شجرة نخيل التمر البلدية في غيظ لم تقدر على كتمانه وقالت :

– أما أنا فأصدقائي في كل مكان ، وقامتي مرفوعـــة بـــين الفقراء والأغنياء الجميع يجنون عطائي الحلود والمفيد.. هو بركة على العالمين ، أما أنت فمعدومة العطاء !...

ردت شجرة نخيل الزينة في صوت أسيف تداري عقمها:

– الآن عرفت معنى فضيلة المنظر وحقيقة الجوهر .

***

١٤



(١)

٠٠ من فوق ربوة غير عالية ، جلس راعي الغنم يبث عبر الناي ألحانه المكرورة ، ظن الراعي أن قطيع أغنامـــه قــد يطرب لأصوات نايه الحزين ، القطيع مشغول من أمامه وعن شماله وعن يمينه بالتهام بقايا محصول البرسيم الذي ينبئ بآخر وريقاته .. قطيع الغنم يستمر في غدوه ورواحه ، يعزف وهــو يأكل مقطوعة حركية للكر والفر ، اللف الدوران و...

(٢)

توقف الراعي عن الغناء ، راح ينادي مساعده قائلاً :

- الآن يطول وقت طعامهم ، دعهم يشبعون .. لكــن خــذ خبرتي وأجلس بجواري بعض اللحظات .. أطاعه من فوره ، وبدأ في تجميع حواسه وقال :

- سمعاً وطاعة يا موالاي .

منذ شبابي المبكر وأنا أنفذ برنامجي مع القطيــع ، الحركــة **التريض بعد سُبات** ، قليل من الماء، ما تيسر من أعــلاف ، هي وجبة رئيسية ، شراب أساسي ، غير ان أهم أدواري في برنامج متابعة مواعيد ولادة ورعاية الحملان الصغار ، كذلك النعاج الحوامل ، أيضاً تامين اللقاء الذي لابد منه بين النعاج الطالبات للحمل مع كبش القطيع ، على مدار الوقــت الــذي يؤمن ويهش المساعد على أغنام القطيع عند الثبات والحركة.

(٣)

نهض مساعد الراعي ليهش على غنم القطيع وهو يبتسم قائلاً في صمت يعكس داخله :

من الآن يمكنني التدريب على قيادة القطيع ، فربما يرزقنــي الرازق قطيعاً مستقلاً لي .

(٤)

في كل قطيع لاحظ مساعد الراعي ، كيف ينتخب الراعي من بين الذكور أقوى ذكر ليلتقي النعاج بهدف حفظ النوع ، توالد وتكاثر لا يعلم نوعه وعدده إلا الله وما يسره من علم لعلماء الأجنة .. الغريب أن مساعد الراعي لم يفطن إلي علة وجود الكبش الأقوى الوحيد في كل قطيع ، لقد نسى ضرورة تحويل بقية الذكور في القطيع إلي خصيان .. وعندما تضعف طاقة الكبش الأقوى الوحيد ، يبدأ الراعي في استقدام كبش غير خصى أوتي بسطة في الجسم وصحة تتسبب في الإنجاب و..

(٥)

انتصب الراعي واقفاً وألقى بعصاه ونايه ، وهم يحملق فما يحدث أمامه .. يا للغرابة ! . **النعاج يهربن من الكبش الملك** ؛ حادي القطيع ، يتدللن.. يقتربن .. يشممن ثلة من الخراف الذكور المخصية .. قال الراعي وهو يضرب كفا بكف :

– عجب يا أولاد .. وجنون .. خراف جميلة ونظيفة لكن ما الفائدة !..

بعد قليل ، انحنى الراعي يمسك بعصاه وهو يدفع بالنعاج ناحية صاحب القرون المدببة والنفاس الكريهة والفروة النتنة والذي لا يتطهر بعد كل شمة وكل إشباع !

١٧

(٦)

مرت دقائق معدودة ، والراعي ومساعده في متابعة لا تهـدأ أو تغفل لأغنام القطيع ، وقفا يرقبان الجديد ، ها هو خروف مخصي من الذكور ، يشمه الكبش الفحل ، يا للخيبة ! أيترك النعاج من اجله ؟!.. استمر الكبش يدفعه بقرونه بعيداً عـن وسط القطيع لحظتئذ انفرد بـه ، اقتـرب منهمـا الراعـي ومساعده ، هما بالضرب والإبعاد والتفرقة بينهما ، لكنهمـا بهتا وتسمرا مكانهما .. حوار وعناد يخرج عن كل مـألوف .. ماء .. ماء .. لكل طلب مع كل نداء .. قال الكبش الفحل للخروف الأملح في سخرية :

– ما فائدة حب النعاج لك .. أنت مثلهن .. الفرق الوحيد أنك لا تلد مثلهن .

غضب الخروف السمين النظيف الأملح وقال :

– **أعرف قصة عقمي ، لكني الضحية والفـداء .. والطعـم المرغوب .. أما فحولتك و.. و.. فالخنزير** القبيح أكثر منك طاقة لكنه قذر وغير مرغوب !..

(٧)

ضحك الراعي ومساعده وهما يلوحان لإبعادهما ، بعـد أن فهما أبلغ ما يقوله أي حيوان ناطق !

***



.. التقيا أمام متجر لبيع الخشاب ، البائع من فوره يستهل يوم عمله بقدومهما معاً : نجار بلدي وآخر نجار أفرنجي ، لاحظ بائع المتجر علامات الضجر أو التنافر الصامت بينهما ، فجأه صاح النجار البلدي في النجار الأفرنجي قائلاً :

- جرى إيه ؟! .. كل مكان استرزق منه تنط قدامي .. يا أخي عندك كثير وكثير .. خلي لقمة لغيرك ..

رد النجار الأفرنجي ويده تسبق لسانه وهو يقول :
- يا فتاح يا رزاق .. أنت نجار من نوع ثان .. ولا أنافسك في المهنة ، عملي مختلف : آلاتي الحديثة ، خاماتي .. أنواع أخشابي .. عمالي .. ورشتي .. كله غيرك .. القاسم المشترك بيننا فقط هو نوع الخشب ..
قاطعه النجار البلدي في صراخ هز المتجر :
- بلا فلسفة ولا محاضرة .. كلنا أولاد تسعة وأولاد مهنة واحدة .. لكن الحظ معك .. بكره ربنا يعطينا ، ومن فوره غير مجرى الحديث للبائع وقال :
- هات يا سيدي خشب بواقي أعمل طبلية وكرسي حمام وباب زريبة .
تدخل من فوره أيضاً ، النجار الأفرنجي وقال للبائع وهو يسلمه ورقه مملوءة باحتياجاته.
- أعط له طلباته أولاً ، ثم عليك بالمطلوب .
أدار ظهره للمتجر وركب دراجته البخارية قاصداً ورشته ، قال لعماله فور دخوله الورشة عليكم بالذهاب ومعكم عربة حيث متجر الأخشاب ، طلبات الزبون الجديد جاهز للاستلام ، وعند المتجر قال النجار البلدي الذي كان متسمراً أمام المتجر للعمال وهم ينزلون من العربة لرفع أنواع أخشابهم من كل مقاس وصنف :
- طبعاً يا رجاله .. الفرق بيني وبينكم في السؤال القائل : " هل الراعي أبو ميه مثل أى مالك لحوليه ؟!..

***

(*) يقصد (مائه) ، حوليه : اسم شعبي لوحيد من الغنم .



(١)

٠٠قال الراوي أما قبل :

فيقول كبير علماء الإحصاء : الحصر الرقمي لأعداء السجون المنظورة في العالم يعد أكبر عدداً من كل المؤسسات العلمية ومنظمات المجتمع المدني .

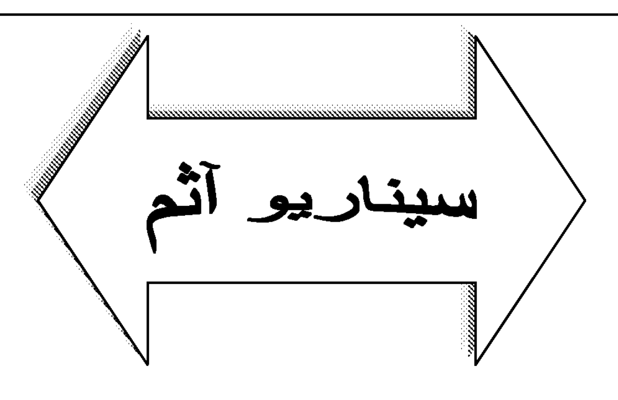
وقال صحافي عجوز : شهدت العقود الأخيرة بنايات اعتقال جديدة أضعاف ما بُني طوال التاريخ.

وقال كبير علماء علم النفس :
لعل البطالة ، وتعقيدات المدنية ، وضعف الإيمان بالرزاق ، والعنوسة ، ومغامرات أصحاب اللحي الطويلة وغيرها من أهم دوافع ارتكاب الجريمة، ومن ثم عقاب المجرمين المناهضين . وأخيراً قال المعنيون بحقوق الإنسان :
الانتهاكات الآدمية بني آدم قد بلغت مداها ، فمعدات التعذيب الوحشية تقدمها (٨٥٠ شركة) بين يدي السجانين كقطع من الجحيم .
رد صاحبنا عليهم جميعاً وقال في خيال وجنوح هيستيرين الكون كله – الآن – في سجن كبير ، وكل سجان مع أمره ، بل آمر الآمر في سجن أكبر .. قيود وسدود من نوع آخر.

(٢)

ظهرت تباشير الصبح ، ودعاء إمام المسجد يترنم في غير تشدد أو انفعال :
– اللهم أمحو فرقتنا ، ووحد موقفنا ، وأخرجنا عن تخاذلنا وصمتنا ..
– اللهم أعطنا الحرية ويقظة العقول والضمائر والقلوب ..
نهض الراوي من سريره ، يرفع فراشه ، يلملم خيوط حلمه الماثل ، وأمارات التفاؤل تغطي أساريره.

***



قال الآمر الحاشد لجموع قوات التحالف :

– أمامكم ما هو أبقى من إسقاط نظـــام " صـــدام حســـين " والسيطرة على أسلحة دماره الشامل ، هيا لإرساء دعائم دولة مدنية ديمقراطية بين أيديكم أحـــدث الأســـلحة وأقواهـــا .. خربوا كل شيء اقتلوا .. ثم اقتلوا ما قتلمتوه ثانية حتـــى لا ينهض مرة أخرى .. ومن يبقى أبعدوه عن منابع النفط ، ثم اشغلوه في أتون الفرقة ، العرقية والطائفية !! واجعلوها في النهاية الفوضى الخلاقة في ظاهرهـــا ، التقســـيم والـــنفط والحرب الأهلية في باطنها ؟!...

لحظتئذ قاطعه إعلامي حر :

– أذكركم بالوعود ذاتها قبل شهور في أفغانستان ، لكنها جاءت كاذبة ومرة .. قتلانا ماتوا ويموتون في جبالها وهضابها مثلما تعرض له المحتلون الروس من قبلنا .. إننا نغامر .. نغامر يا سيد التحالف الكوكبي .

رد عليه في عناد :

سأنشر الديمقراطية الغائبة بقوتي الفتاكة المهيمنة ،دعني أقول لك : لقد جاوزت حدود مهنتك .. فلن تذيع شيئاً مما جرى ويجرى الآن.

صفق المؤتمرون المتآمرون أمامه وقالوا :

حسناً ألا يعرف العرب نوايا احتشادنا التحالفي ، كفاهم ما أبلغناه إياهم ، تأكدنا إسقاط النظام ، من طبيعتهم النسيان لم يسأل أحد عن أسلحة الدمار الشامل !! .. دعهم يبلعون الطعم بل أن بعض دولهم ستساعدنا ، وتمرر آلات الحرب الجهنمية في الخفاء والعلن.

انسحب الصحافي الحر وهو يثرثر في صمت :

أه فرقاء الأفغان .. فرقاء العرب ، أكبر هدية لا يستهان بها أما الغزاة .. يا للخزي !..

(٢)

٠٠حشد .. نهب .. عبث .. طمع .. تآمر .. قواعد واتفاقيات .. دولارات .. تكريس وتلويح عند كل رد الجميل ... تجمع دولي عسكري متجانس في رموزه .. تحذيرات .. استعدادات .. الممرات الدولية تفتح أبوابها .. انتهت أسابيع الحشد والتهيؤ لتدمر أقوى جيوش المنطقة .. أحكم الحصار العسكري في كل اتجاه ..

فوجئ آمر التحالف وتابعه بطول فترات الصمود ، فضاعفوا قوة الردع ، وسقط النظام برمته وتفرق جيشه ، ثم بدأت جيوش التحالف الكوكبية و تقطيعها أوصال دولته ، اهتزت الدنيا وسقط النظام ، ولا حس ولا خبر عن قطعة واحدة من

أسلحة الدمار الشامل .. المهمة التدميرية التحتية لشامل البلاد قد انتهت .. توقع الرأي العام العالمي خروج الجيوش المتحالفة وعودتها لمواطنها .. هيهات لم يحدث .. بل أطبق الآمر المحتل قبضته على الأرض حيث منابع النفط و...

(٣)

قال الكاتب الصحفي الغربي الحر في مقدمة كتاب له :

ليس بالآلة العسكرية الجهنمية تقام الديمقراطيات التي وقودها الدم المراق ، وليس هناك من يراقب جرائم الأسلحة المحرمة

والفتاكة ، آلاف القتلى وعشرات الآلاف من الجرحى من هنا وهناك .. حقاً إن أضعاف أضعاف تلك الأعــداد مــن دولــة تشرزم شعبها ، ودمرت مقومات حياته .. المحتلون المتحالفون جاثمون .. باقون .. يعربدون .. ويحركون أدوات القتل بــين كل الفرقاء .. هل من ضمير إنساني حر يوقف نزيف الشعوب التي عانت من الشر الديمقراطي العــولمي ويــلات الحــرب ضخمة ومروعه أكثر نالته من الديكتاتور المخلوع " ....

قرأ صاحبنا الفقرة السابقة وانهمرت دموعه ، فلــم يجــد إلا صدى صوته وهو يبكي .

(٤)

الحصاد كالعلقم .. احتلال باغ ، قوة جهنميــة فــي القتــل والتدمير والتعذيب .. العصبة الكوكبية هى هولاكو الماضي والحاضر والمستقبل ، حكايا مخيفة لا تقدر عليها أفلام

الرعب المعاصرة ، بغداد .. بلاد الرافـدين الحضـارة العريقة ، باتت ألعوبة تحركها جيوش القمع الديمقراطي

(٥)

..المحتل يعيد البناء الشكلاني لما أسقطه ودمره ، هو والتابع الحليف .. النظام السابق المخلوع قيد المحاكمة .. الفرقاء

يتزايدون من كل طائفة وعرق .. القتلى يتزايدون كـذلك ، بينما قتلى التحالف الصهيو أمريكي بريطاني بخاصـة ، فـي تناقص ملحوظ ، فرق تسد ، ولتتجه الترسانة الجهنميـة عنـد منابع النفط ، ولنجرب صواريخنا وقنابلنا العنقودية عن طريـق الحليف غير الشرعي في مكان آخر وعلى مدار الساعة ، بدعم " الفيتو " تارة ، أو بدعم آمر تارة أخرى .

(٦)

قال صاحبنا لنفسه وهو يتمنى الموت على حياة الاستسلام :

من عليه الدور يا ترى ؟

........؟! .....

– الدم المراق ، القوة الغاشمة .. مداها ووقتها أشياء نجد لها في أجندة الآمر الذي يخفي مصادره مثلما يخفي مصالحه .

٢٧

(٧)

أجاب عجوز حكيم على سؤال صاحبنا من فوره :

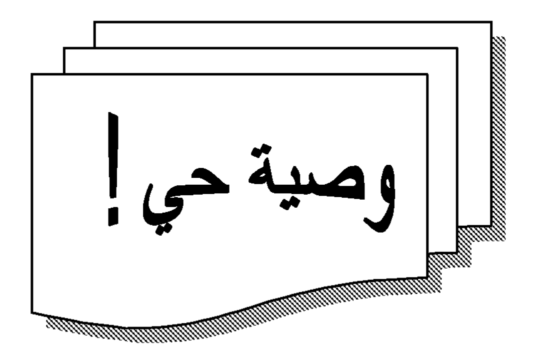
من سكت اكثر .. أو من يجبن أكثر الدور عليه حتماً، رد عليه صاحبنا في دهشة :

وكيف ؟

قال في بلاغة شافية تمزق السيناريو الأحادي في آن :

الذئب يهاجم الشاة القاصية ، **هيا لنعتصم بحبل الله** ، الاتحاد موقف وقوة ، لحظتئذ سيغيب عن ذاكرة الآخر، النيل ممـــن عليه الدور .. سنكون ولا يكون.

***



(١)

.. المكان موحش ، كلاب الحراسة المسعورة تلـف أركـان سجن " غو "

بينما القوات الأكثر وحشية تمشط مسطح المكان .. معصوب العين اليسرى شوهد السجان يأتي به إلي مكان رث يبعد عن زنزانات جهنم الدنيا .. كانت العين اليمنى مغلقة بفعل تورم من أفانين اللكمات والصدمات الهائلتين .. ألقى السجان..

بسجين الكلمة " سعيد الحاج " على مقربة من مجمع قمامة السجن .. تأكد السجان من إغلاق السلاسل التي تقيد حركة الساق .. عاد السجان يصطحب زوجة وابنه وألقى بهما أمامه ثم رفع العصابة السوداء ، دقائق قليلة وجاءت قوات تحيط بالمكان ، فانضم إليهم السجان يرقبون على بعد أمتار قليلة وقائع الزيارة .

الأحضان المشتاقة الملتاعة ، ودموع فرحة اللقاء تغطي المكان ، زيارة مأمولة لسجين الكلمة ، طال انتظارها ، لم تتحقق إلا بعد وساطة دولية بل بعد جهود مضنية موازية لمنظمات حقوق الإنسان .. يا للخزي ! .. أين اتفاقيات السجناء والأسرى و...........

(٢)

تحسست الزوجة كامل الجسد المعذب ، وانخرطت في البكاء ، يحملق الابن في وجه الأب فيراه صابراً شامخاً .. اللقاء الحميم تنخلع له القلوب وفجأة همس الأب ناطقاً بالعربية :

يا ولدي سأعطيك كنزاً يؤمن لك تاريخك من بعدي مفردات الكنز شيئاً ادخره لتنقله إلى كل الفتيان الأبرياء من زملاء المدرسة .. انتم شباب الغد وقادة المستقبل بادرت الأم تقاطع

ولدها وتهمس في أذن زوجها :

قطعنا آلاف الأميال لنطمئن عليك .. حدثنا عن أحوالك أهم .

قال فيها في رحمة وود :

- أحوالي ستتحسن إذا نفذتم وصيتي ..

بعد الليل يطلع نهار.. كلنا في انتظارك .. ويطول عمرك يارب .

فجأة .. تقيأ السجين لفافة كان يحتفظ بها في جوفه، وقال لزوجته أرجوك ضعيها في قلبك ، ويطالعها ابني على أقرانه ، مرت الثواني كدهر .. كان السجان يعلن من بعيد في صياح آمر.

الزيارة انتهت ،في الوقت الذي دست الزوجة اللفافة في صدرها ، كانت الأحضان اكثر حرارة ، ودموع الابن عند الوداع أكثر أملاً في الله القادر القيوم.

***

٣١



(١)

.. راح مدرس التربية الإسلامية يفند على تلاميذه عظمة الإسلام فقال :

تُنتهك الآن آدمية الأسرى .. فالتعذيب وما أدراكم ما التعذيب جهنمي وقاس .. تجويع وعزل .. واغتصاب وقتل .. هتك أعراض .. الدفن لأحياء و...و... بينما إسلامنا يحث بل يؤمن رعاية الأسرى.. علاجهم.. وكل حقوقهم .

قاطعه صوت تلميذ غاضب :

نعِم إسلامنا يا أستاذ .. لكن ألم يرق قلب أو يفهم عقل فـــي عالم اليوم ما يحدث لضحايا ويلات الحروب ومن عــذابات السجون كذلك .

رد عليه المعلم في هدوء :

صمتنا .. عدم توصيل أصواتنا بالكيفية والقانون .. الساكت عن الحق شيطان اخرس يا بني ....و..........

لحظتئذ دق الجرس معلناً نهاية حصة الــدرس ، ولا تــزال نستمرئ الوقوف عند مرافئ التخــاذل .. الســكون .. قلنــا وفعلوا .. وكنا وكانوا !

(٢)

أنزوى أحد التلاميذ شارداً ، لاحظ أقرانه ذلك ، اقترب منــه بعضهم ، حاولوا إخراجه من دائرة الانطواء ، خــرج عــن صمته وخزيه وقال :

ذات مساء حزين حدثني أبي عن مأساة جدي مع العدو حيث وقع في الأسر في حرب حزيران عام ١٩٦٧ م لقد أذاقــوه شتى صنوف العذاب .. كان أبياً وحراً ، ضاعفوا العذاب ..

كسروا عظامه ، كان أكثر شموخاً وإيماناً فأفقدوه رجولتــه ، قطعوا عضو الذكورة من داخله وخارجه وعندما تسلمناه من

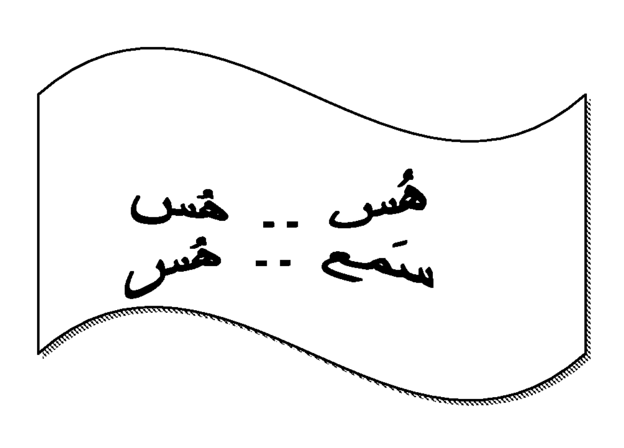
الصليب الأحمر يهزي في مرارة:

ما مات من انجب .. البركة في أولادي وأحفادي .. الرجولة فداء وعطاء تدخل الأخصائي النفسي في معسكر اســتقبال الأسرى العائدين يقول له :

الجلادون هم ضحية .. هم ضحية التعطش للبطش وأهــوال التعذيب .. الحقد الممقوت يسري في دمــائهم.. فــي تلــك اللحظة هتف الأسرى بأعلى صوت :

الله اكبر .. الله اكبر .. إن بعد العسر يسرا.

***



(١)

.. حمل صندوق بريد صاحبنا حزمة من المطبوعات في يــوم واحد ، لم ينتظر الوصول إلي غرفة المكتب ليطالع ما جاء بــه البريد ، أمام مبنى مكتب البريد جاء فضول استكشافه المجهول كان الفضول ملحاً وعاجلاً ، عناوين المطبوعات الوافدة تقول :

" الغائب والبركان مسرحية لمحمد سعد بيومي " حدائق

الصوت .. شعر حسين على محمد ، أهددكم بالسكوت .. شـــعر عصام الغزالي " ، " مدائن الفجر .. شعر صابر عبدالدايم "(*).

(٢)

استقل صاحبنا عربته التي تئن من ويلات الحفر والمطبـــات المرورية والأخرى الأهلية الاستفزازية ! .. شرد يحدق في عناوين الكتب المهداه : الغائب هو رمز الخلاص ..القيــود السدود .. القيود الماثلة تبتلع أي بركان خامد أو ثائر .. أما الحدائق فهي الغائبة واقعاً وفناً .. هي الأصوات المأمولة في عقول الناس وضمائرهم ، لكن التهديد بالسكوت سخريتنا من الصمت وإدانة للاستسلام ، السلام المستباح ، وأخيراً يجئ نداء الفجر فيفتح بوابة الأمل نحو غد أفضل .

(٣)

.. صعد صاحبنا إلي غرفة مكتبه يقرأ ويرتب أفكاره مـــرة ثانية ، وضع المطبوعات على مكتبه ، أدار المذياع يبحــث عن أصوات من زمن الطرب الأصيل الجميل ، لم يجد سوى أصوات أدائية تعكس أحوال الناس الفجة ، أوقــف صـــاحبنا المؤشر يستمع إلي فقرات من وقائع مؤتمر صحفي مباشـــر لرئيس العلم الكوكبي الجديد يقول :

(*) أعمال أدبية منشورة لمبدعيها.

هُس ... هُس

سَمع ...هُس

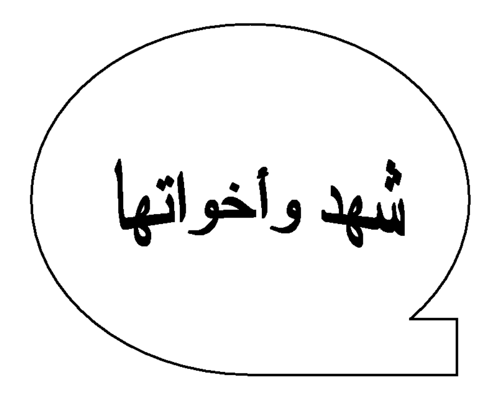
سكو ووت

ليُسمع كلامي

ليُسمع كلامي

ليُسمع كلامي.

***



(١)

.. وقفت الطفلة الواعدة " شهد عطية سليمان "

أمام السبورة ، الفت ذلك الأمر عندما يلم بمعلم حصة الدرس أى عذر قهري .. أمسكت بأصبع الطباشير وقامت بـــدور المعلم ، كانت محبوبة من الجميع متعاونة .. مُحبة مُســالمة ولا تميل مطلقاً للكراهية والعدوان .. على ان" شــهداً " قــد منحها الله قواماً طويلاً وجميلاً يفوق أجسام نظائرهــا ممــن قاربوا سن الثانية عشرة .. أوتيت أيضاً بسطة في العقــل .. العمر العقلي أكبر من العمر الزمني كما يقولون .

أدارت " شهد " ظهرها لزميلاتها في الصف الأول الإعدادي بمدرسة السلام الإعدادية للبنات ، وتسمرت قليلاً تجاه السبورة وراحت تكتب في خط واضح تلكم العناوين ، وفي تنسيق يقول :

(١) = الأول : هيئة الأمم المتحدة .

(٢) = الثاني : الولايات المتحدة الأمريكية.

(٣) = الثالثة : المملكة المتحدة.

(٣)

التفتت " شهد " إلي الزميلات وبادرت في طرح سؤال عبقري عليهن وهي تشير إلي ما كتبت : ما علاقة الأول بالثاني والثاني بالثالث وما المتشابه الوحيد بينهم ؟!..

(٤)

لم يمض وقت طويل حتى بادر الجميع في إجابة أسرع من الحاسوب .. اكتبي يا شهد الإجابة على لسان مرتب لكل واحدة منا بترتيب جلوسها .. كلمة .. كلمة .. من أول مقعد بأول صف إلى آخر مقعد بآخر صف.

٤٢

(٥)

اكتبي ما يملى عليك : " قبل ج . ب الابــن " كــان (١) = الأول مَهيباً وّملزماً وعادلاً ، والآن (٢) = الثاني نجح فــي ترويضه أما الثالث فالقاسم بينه وبين الثاني كالأول في كلمة (المتحدة) التي هي عندهم أُحادي .

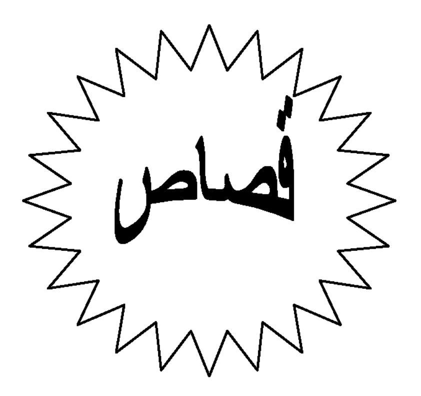
الثاني هو الأول والثالث هو الثاني ، والثاني هو الحادي وكفى ".

(٦)

وبعدما انتهت " شهد " من الكتابة قالت وهي تبتسم فــي وجوه الجميع :

الحمد لله لقد فلسفتم كيفية الإجابة عن فضح كــل متعمــد أو غير مبال .. لقد صدق أنه لم يقتل أطفال الإنســانية ويهــدم باسم الاستعمار الديمقراطي أحلام الطفولة ؟!...

***



(١)

.." أبو غريب " ليس اسماً لشخص ، وإنما هو أحد أضــــخم السجون وأقدمها في بغداد . رواده من النزلاء كثر .. الذكور لهم أجنحة وطوابق لزنازينهم ، وللنســـاء نظيـــر مماثــــل .. البناية ككل مفزعة .. عتيقة أشبه بسجون العصور الوسطى اللهم إلا معدات التعذيب الجهنمية المعاصرة .. " أبو غريب " الآن وصمة في جبين قوات التحالف ، استثمرت " أبو غريب

" قائده التحالف وآمرته لتملأ زنازينه بكل مقاوم أو معارض ، بل كل من يحاول الترابط والنهوض !

(٢)

تقول أغلب منظمات حقوق الإنسان :

لا فرق بين ما يحدث في سجون " قندهار" و " أبو غريب " و"سجون إسرائيل " ونظائرها الثابتة والمتنقلة ، المعلومة والمجهولة .. هي لكل من يقول لا .. لا.. يزج حقاً يزج بالنزلاء في هذا السجن العتيق نتيجة لوساطة عميل أو خائن أو منافق وربما مرشد متكسب بالدولار وحلم الهجرة إلي العالم المسمى بالأول الحر .. ومن يتمرد مصيره البارود .. النار الرصاص .

(٣)

في زنزانة نساء مظلمة وضيقة متأخمة لرمال الصحراء قرب سور سجن " أبو غريب " " قسم النساء " ألقى بفتاة بغدادية حسناء ، تهمتها الخروج للتسوق ليلاً ليتها ما خرجت للتبضع.. صرخت .. توسطت الشرطة العراقية لدورية المحتل الأمريكي أن يتركوها لحالها .. ليست إرهابية ولا تقول "لا " إنها طالبة صيدلانية " لم تسمع الدورية الأمريكية لوساطة الشرطة العراقية

هذه المرة .. الجمال الفاتن ، والقوام الممشوق ، والشعر الناعم مصيرها داخل الظلمة والقذارة والحبس الانفرادي .

(٤)

.. مرت ليلة ليلاء داخل الزنزانة ، طالبة الصيدلة الحسناء لسان حالها يقول :

سأنتقم لعربدة جنود الاحتلال الأربعة ، حين هتكوا عرض " هيفاء " ثم قتلوها أهلها ، سأنتقم لجرائم الحرب ، ولكل جرائم الأسر في السجون . يا للنزالة ! إرهاب دول وإرهاب أفراد ويرموننا نحن الضحايا بالإرهاب.

تذكرت حين استيقظت قبل ان تتسلل إلي شباك الزنزانة أي قطعة ضوء ما قاله أساتذتها :

الإرهاب هو فعل إجرامي من كل متعصب متشدد ،يتطرف عن الحق والعدل والخير والجمال والسلام .. يرفضه العرب ويرفضه ديننا الحنيف .. أصحابه قلة من الجهلاء بأصول دينهم وأمور دنياهم .

(٦)

سطعت شمس الله ودخل شعاعها الزنزانة ، الحارس هو الله

كانت مجموعة من العقارب الجبلية تطوف حـول إنـاء الشرب ثم تعود إلي ركن الزنزانة حيث أناء قضاء الحاجة ، قالت طالبة الصيدلة الحسناء .. حسناً .. ثم أخرجت من صدرها كيس نقودها وأفرغته ، ثم أوتيت شجاعة لا مثيل لها وملأت كيس النقود بالعقارب . ولم تمر دقائق معدودة حتى جاء السجان الأمريكي ومعه مواطنة له، كانت ممسكة بكاميرا تصوير ، كان السجان ممسـكاً بزجاجـة خمـر وبعض قطع الشيكولاته ، فهمت الفتاة الأسـيرة نظراتـه الجبانة ورغبته في جرم جديد ، ألقى بمرتبة أسفنجية تحت قدميها وقال بلكنة عربية إنجليزية مخزية .

– هيا .. سوزانا زميلتي ستصور حفل اسـتقبالنا لـك .. اخلعي وتهيأى وإلا .. عندها صرخت " كمم بعصابة فمها ، وطرحها أرضا وهو يمزق ملابسها .. حركت المرتبـة الإسفنجية بجوار إناء قضاء الحاجة .. لا يهم .. يمضـي في غيه قاومته طويلاً مدافعة عـن عرضـها ، وأخيـراً أعملت عقلها أمام فحولة الجندي المُحـرر المحتـل " آه " الديمقراطي الوحش !. إنهارت .

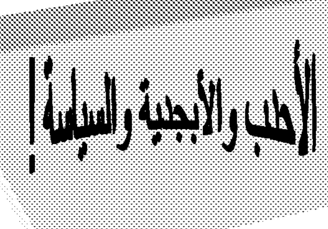
بدأت سوزانا تصوير هتك العرض وضحكاتها تملأ أركـان الزنزانة ومع كل لقطة تنادي اعد أيها الرقيب " دبليو شيني " .. أعد أيها الرقيب " دبليو شيني " نحن الأقوى في كل شيء

(٧)

.. خارت قوى الرقيب الذئب ، لم يستطع حتى النهوض من

فوق ضحيته وفي سرعة البرق كان كيس النقـــود المملـــوء بالعقارب السامة بين يدي الضحية ممزوجاً بدمها المراق .. فتحته ثم ألقته في سرعة وذكاء في أكثر من موضـــع فـــوق جسد الذئب المنهك القوي .. كانت لدغات العقارب المميتـــة جداً رسالة قصاص قد يفهمها المحققـــون العســـكريون، إن أدركوا !!

***



(١)

..في أعقاب صلاة الجمعة خرج شيخ المعمــرين " زهــدي الغمراوي " من بوابة مسجد القرية الكبير يتأبطه نفــر مــن المصلين ، اتجه إلي منزل العائلة حيث اللقاء الأسبوعي في ضيافة الابن الكبر .. راح الشيخ الأحــدب ينقــر بعصـــاه المسافة بين المسجد والمنزل ، لحيته البيضاء تكــاد تطـــال ركبتيه ، أحدودب الشيخ من تاريخ يحمله فوق ظهره طوال

٥١

مدة قرن وربع القرن بالتمام والكمال ، كان ابنه الكبر شيخاً هو الأخر ، لكنه في غير تقوس لظهـره ، انشـغل بمـد الموائـد لأرحامه ، الجد وأولاده وأحفاده يأكلون في رضـا وشـكر .. حسناً ، إنها وليمة أسبوعية ينتظرها الجميع .. البركة في اللمة .. لوحظ عزوفها – عن تناول الطعام ، إنه شبه إضراب عمـا يحدث من ١٢ يوليو ٢٠٠٦ من نار ودمار وإلى الآن .

(٢)

انزوى شيخ المعمرين بالحفيد الإعلامي في ركن من سـاحة الدار الواسعة يتناجيان ، وبين أشجار حديقة منـزل العائلـة راح الأطفال يمرحون .. يتسابقون ، بينما النساء يتسابقن في سرد الحكايا والطُرف .. الآباء يرقبون المشهد الرائع واللقاء الحميم " البخور يعبق المكان " قال الحفيد الإعلامي لجـده : ادع لنا يا جدنا ان يديم عزنا في حب وتآخ . رد الجـد فـي صوت مطمئن :

بحب الخير والنية الطيبة ستكون دائماً يد الله ومشيئته مع الجماعة

(٣)

.. استثمر الجد هدوء نسبي لأفراد العائلة، اخـرج حافظـة نقوده ، ثم اخرج ورقة مهترئة إلي حد ما وأعطاها من فوره

٥٢

لحفيده الإعلامي الطموح وقال له :

خذ يا أملي وأمل العائلة .. معــك رءوس أفكــار لخبــرات مستفادة من تجاربي لأكثر من مائة عام ، ، هــي **أمراضــنا المزمنة** ،.. هي سر ضعفنا وطمع الآخرين فينا .. والــدواء الناجح لها إذا بحثت ونقبت فيها ، ســتجد ضــالتك .. هــي تقدُمنا ، بل حل جميع مشكلات الأمة مرهون فــي دلالــة معانيها وفي مقلوب مرادف كل داء عند كل حرف ، ســكت الجد وهي يتأمل الحفيد مطالعة الورقة التي قالت ســطورها بين شفتيه وعلى لسانه المتلهف :

أ) : استسلام .. أنانية .. إملاء الآخر

ب) : بغي .. بهتان ...بركة قليلة .

ت) : تشتت .. تعصب.. تقاعس

ث) : ثرثرة حتى الثمالة ...

ج) : جبن .. جرائم.

ح) : حماية العدوان .. حمى استهلاك

خ) : خيرات ، ثم فوضى في التوزيع.

د) : ديمقراطية المنح والمنع .

٥٣

ذ) : ذل وإحساس بالدونية...

ر) : رهان على المجهول الآمر

ز) : سلام ميت ممزوج بالدم ..

س) : شفافية شبه معدومة .

ش) : صراع نفعي مادي فوقي ..

ص) : ضياع حقوق ، ضمائر ميتة .

ض) : طوارئ .. طرف سلامي واحد..

ط) : ظمأ دائم للظلم .

ظ) : عشق السلطة ، علم غائب .. عقوق يتعاظم.

ع) : غمط الحق والغلط المباح.

غ) : فرقاء عند كل مستوى والفتن كذلك .

ف) : قول لا فعل .. قمع ....

ق) : كبت طاقات وهجرة الكفاءات

ك) : لي أذرع الضعيف فالأضعف.

ل) : مغامرات جهلاء الفرق الدينية المناهضة للسلطة

م) : نهب الناهبون المستمر...

ن) : هواية عشق التمايز الزعامي القُطرى .

٥٤

ه) وأد حرية الرأي في اغلب الأحوال

و) : يبدل الناس الليل بالنهار في لهو وبطالة

وعندما انتهى الحفيد من قراءة **الداءات المزمنة** ، لمعت عيناه ، لحظتئذ شهق الجد شهقته الأخيرة ، خرجت أنفاسه في موقف مهيب .. تعالت صيحات العائلة وهي تلملم أحزانها **إلى دلالات مقلوبة** مأمولة ربما يقدرها المحكومون مع الحاكمين ، فكفانا انتظارات التجريب الذي يعقبه التجريب.

***

٥٥



.. أطل صحبنا من شرفة استراحته الريفية ، راح يتأمــل وقت السحر ، الروائع الخلابة من فيض الطبيعة ، تجاوز المنظر ، يقلب بصره – إلى أطراف بعيدة تلــي حديقــة الاستراحة .. كانت عيدان الذرة الناضجة تلــف أرجــاء المكان ، الثمرات الجافة من (كيزان) الذرة ترسم للرائــي لوحة تشكيلية يعجز عن رسمها فنان .. الكيزان المتراصة

الكثيفة أشبه برءوس بشرية مدلاة على حافة عيدان نحيلة... بل نحيلة جداً .. كهرباء القرية ذابلة وضعيفة .. تنحسر أمام ضوء القمر الساطع في ليلــة بــدر اكتمالــه .. الصــناديق الأسمنتية العشوائية يدب داخلها مع الحيوان خليط من أنــاس جدد . سماتهم الغالبة الكسل والثرثرة العقيمة في حق إخوانهم عباد الله !

***

٥٧

أناس اليوم نقيض لمروءة أناس الأمس .. خاصـــموا حنـــين الأرض إلا من رحم ربه ..استغرقهم المثير الآني المســـموع المرئي في شتى صوره .. على امتـــداد البصـــر لا يـــزال صاحبنا يحدق في متعة في آفاق هذا السحر وأنفاس الخضر الجميل من خلف عدسات النظارة الطبيـــة الســـميكة يقـــف صاحبنا مليا عند آفاق مشهد محصول الذرة وعيدانـــه قبـــل الحصاد .. جداول الخضرة وعلى حوافها عيـــدان النخيـــل تتناغم مع مسح عيدان الذرة في معزوفة جمال لا حدود لهـــا .. فجأة ينقطع التيار الكهربي عن القرية ، فيحولها جميعـــاً إلي شبه جثة ضخمة هامدة وإظلام مباغت !

***

اشتعل الخيال لحظة الإظلام ، هم صاحبنا يبحث عن وسيلة للضوء .. عاد أدراجه تقوده هالات القمر الفضية فتــداعب حيزا من الشرفة . القمر يزداد رونقــاً .. التيـــار الكهربـــي يحاول العودة دون فلاح .. سريان التيار يتئد أشــبه بعربـــة متهالكة لا تستطيع الصعود إلى مكان عال .. يئن التيار بما يحمل .. هيهات .. صاحبنا يعود مع خياله يتــذكر الماســـي العجيبة من طفولته البعيدة .. أحداث محفورة في خياله تكاد تكون شاخصة لحظة الظلمة ، برز من شـــريط الـــذكريات مطاردته مع رفاقه لكل كلاب الحي لحظات التكاثر !! كانت القطط أيضاً تطارد الفئران مثلما قدر لأبي قـــردان افتـــراس حشرات الأرض .. وكان التوازن مبهراً لا تبعث به هندسات العصر ومتغيراته .. وفجأة تشتد عافيـــة التيـــار ، فيســـطع المكان .. لحظتئذ يتوقف عرض الذكريات عن زمـــن ولـــى ولن يعود .. عاد صاحبنا من فوره إلى آفاق السحر يتأمـــل سحر السحر حواليه .. ما اجمـــل الضـــياء الطبيعـــي منـــه والصناعي .. حرك صاحبنا مقعده إلي حافة الشـــرفة مـــرة أخري .. مسح عدسات نظارته واطل إلي حديقة اســـتراحته الملاصقة لنافذة غرف المكتبة .. آه وألف آه .

.. لقد تذكر انغماس أصحاب الأدمغة بجديـد العصـر فـي المعلوماتية والاتصال والمثير الإعلامي والهندسة الوراثية و .. هيمنة الأقوى .. آمن صاحبنا بان منجزات العقل في القوة المتغطرسة مآلها البوار لأنها تصطدم بحق الآخر وحياتـه ، وبما يؤمن الناس به ويعتقدون .. دلف صاحبنا إلي الـداخل يعد كوباً من الشاي وهو يقول : الإيمان عدل ونور ويقين في العقول والقلوب كذلك !

***

بعد مضى دقائق ، عاد صاحبنا إلي مقعده في الشرفة وهـو يحمل الشاي والماء .. الشاي الأسود ، والماء الذي يعشـقه ويراهن عليه .. مسألة حياة أو موت ..

.. قريباً سيكون أثمن من البترول ومن اجله تقترب سـاعات الحروب و.. أخيراً هدأ شروده مع عبه المـاء عبـا .. راح يتساءل في صمت :

لماذا عدوان القوى المتغطرس ؟

جاء من داخله جواب فلسفي متسائل أيضاً :

ولماذا يرضى الضعفاء في صمتهم وتفـرقهم – ومـن ثـم خضوعهم لعجائب المتغطرس وأفانينه ..و..

....

....

لا فائدة .. الأنياب أقوى من وداعة أسنان الحملان ! قطـــع شرود صاحبنا نباح مطول وعال مصدره كـــلاب الحراســـة القابعة على مقربة من الاستراحة ، نهض صـــاحبنا واقفـــاً يرقب سر النباح .

***

كان عوضين السجيني يغط في نوم عميق والى جـــواره رعـــاة أغنامه ، في الوقت الذي اختارت فيه الذئاب توقيت نومهم بـــدأت تتواقد وتحوم حول سياج مرقد الغنام الكائن على نحو مائتي متر من حديقة الاستراحة .. ألف صاحبنا عدم الراحـــة كلمـــا أتـــت الذئاب لتهاجم الأغنام إذ لا تملك كلاب الحراسة إلا النباح للدفاع عن الغنم .. نباحهم أشبه بأصوات الشجب واستنكار الدربة على الدربة على الدفاع وصد الهجوم .. نباحهم الآن يعلو ويســـتمر .. بحت أصوات النباح .. تناست الكلاب أن لها أسلحة لصد هجوم الذئاب .. تحول الكل إلى داجن مترهل .. أو تنافس في النبـــاح فحسب ! صوب صاحبنا كشاف الإضاءة تجاه مرقد الأغنـــام .. هاله المنظر الماثل .. قافلة متحالفة من ذئاب كثيرة ماكرة تحيط

بالمكان من كل جانب ؛ خمد صوت النباح إلا مــن حشــرجات قليلة تقاوم في آنين بدأت الذئاب بإسكات صوت كل من يعارض الهجوم المدبر .. المناورة تشتد وتطول.

حفنة قليلة باقية من الكلاب تقاوم ؛ تتقطع أوصالها .. بدأ الرعاة في إطلاق طلقات نارية من أسلحة بدائية ، لم تعبأ بها قافلة الذئاب المتحالفة .. أنيابها أكثر حدة وبطشــاً .. أقشعر جسد صاحبنا وهو يشهد الــبطش ذاتــه .. تفــرق الرعاة الحماة وتركوا الذئاب للنهب العشوائي أو المخطط .. كان عواء (الذئب الحادي) يعلن فرحته وسط أشــلاء الضحايا من غنم وكلاب و... وقال لقد وقع بــين أنيــابي أكبر كبش .. الكبش الديكتاتوري الذي أذاقكم الجــوع .. وسيدفع ثمن غطرسته على القوى الديمقراطي الأكبــر .. شعر صاحبنا الخزي ..

داهمته غفوة سببها غيبوبة مما جرى ويجري.وراح فــي سنة من النوم .

***

آفاق صاحبنا من غيبوبته على أصوات متداخلة أقرب إلــي جعجعة كانت لخفراء الحراسة بنادقهم العتيقة خالية من

الذخيرة ، فقط حناجرهم تعلن المواساة .. يتحسرون على الخسائر من نعاج وخراف وحملان وكباش ... ووقفوا حيارى بين الرضا والغضب على سقوط الكبش الأكبر .. بسطت البقية الباقية من الكلاب أياديها فوق التراب الذي اختلط بدماء الضحايا .. يتحسرون ويتوجعون حاول صحبنا ان يشارك صاحب الغنم والرعاة والخفراء في المكان همومهم فقال :

لقد تغلب القوى المتغطرس المتحالف ، لنقاوم ونبدأ في إصلاح ما أفسده الهجوم .

....

لم يلتفت إليه أحد .. وانهمكوا في حصر المنهوب والمجروح والمقتول و............

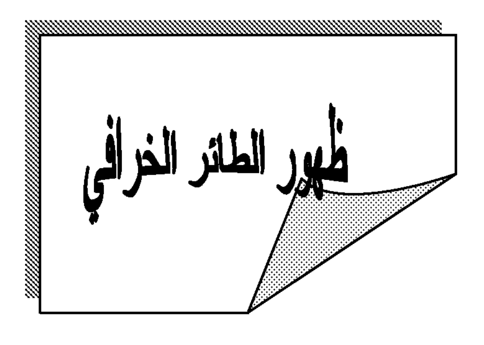
***

بدأت تباشير الفجر الجديد .. لم يذق صاحبنا للنوم طعماً .. هاله مرة أخرى مشهد مثير جداً ، غير مرعب أو مخيف إذا بدأت في التوافد إلي جانب المعركة المنتهة من دقائق قوافل عديدة من كلاب ذئبية ذات أنواع وأحجام وألوان .. لم تكن تلكم الكثرة من الكلاب الذئبية بكل فصائلها إلا حشود

لاستعراض أو حفل مقام الآن .. غطى المكان حشد هائل مـــن كلاب بيضاء وسوداء وصفراء وغيرها من الألوان ، الغريـــب هو بادره حفل للكلاب البلدية مع الأجنبية قـــد بـــدأ .. أذعـــج صاحبنا ان يرى بوضوح تام الكلب الكبير الذي وقـــف يحتـــل أعلى المكان ، وقـــف بلونـــه الأبـــيض ذي الـــرقش الأزرق المرصع بالنجوم والخطوط يرفع ذنبه ويحركـــه كمروحيـــة ، وعلى يمينه كان تابعه الأجنبي الأبيض الأقل حجماً يلعب بيديه وقدميه رقصة النصر ، بينما يكسو ظهره خطان متقاطعان في لون داكن يخالف لونه الأبيض .. توالت الجموع من خلفهم من كل لون وحجم .. الكل بدا في الركض والكر والفر يمرحـــون .. ويرقصون ، لوحظت الكلاب البلدية تشـــاركهم اللهـــو فـــي انصياع منكسة الذبول مطأطأة الرعوس .. وفجأة صاح الكلـــب الذئبي القوي المتغطرس من أعلى مكانه ولسان صياحه يقول : لتأكلوا البقية من كل شيء .. أرقصوا وتحرروا من الحراسة والصيد والقنص .. و..

سنبدأ في إصلاح ما أفسد .. فضلات المعركة بين أســـنانكم تشهد بجبروت مخالبي و أنيابي .. بل أحاديتي الملطخة بدم ويلات غزواتي .

***



(١)

□□ مفتتح :

قال الأميون :هذا الشيطان الضخم أكبر من عجائب الدنيا كلها.

وقال المثقفون : إنه ميراث كل الأنواع ، ماحق الضعف ، باسط النفوذ ، وقوده صمت الآخر.

وقال علماء الأحياء : .. إنه نسيج هائل من خلايا الشر في

الأنس والجن والطير والحشرات والحيوان والجمادات ...

وقال رجال الدين : إنه من عجائب الخالق .. فلله في خلقه شئون ، لا الفراعنة ولا العمالقة تطاوله .. سيمهله الخالق ويمحقه .

وأخيراً قال الراوي : " سكتنا له .. خرج علينا بحماره.."

(٢)

□□ حط فوق سطح الماء ؛ كائن غريب الشكل، عجيب الحجم ، أسماه الراعون " الطائر الخرافي " أطراف جناحه الأيمن تغطي شمال اليابسة الأرضية ، بينما جناحه الأيسر يغطي الجنوب ، أما رأسه – فعلى ضخامتها – فيقدر حجمها نصف حيزه المكاني ، عيون الطائر تحدق في عجرفة وخيلاء وتمايز .. قال العلماء حين يشاهدون منظره وسلوكيات عناده : إن كل الكائنات منذ عصر الديناصورات لا ترقى سدته .

(٣)

□□ الطائر العجيب أكبر حجماً من مجموع بارجاته وراجمات ناره.. ربع قرن مضت إلى أن تنبأ علماء السياسة والهندسة الوراثية بمخاض ظهور "الطائر الخرافي" .. ومن لحظة ظهوره لم يسلم كوكب الأرض من جبروت هيمنته ، لم يكف عن التحليق والبطش والإملاء .. يتحرك في دهاء

ومكر يبشر بالخير ، بينما الشر ديدنه في غدوه ورواحه..في جوفه معدته الأسطورية مدد لا ينفذ مما نهبه من خزائن الأرض ، تحت جناحيه ترسانة لا تحصى ، مداها تحليقاته بالنار والدمار ، في الذنب تتشبث أعشاش الطيور الكبرى التابعة له ، قال البعض أنهم ثمانية وفي رواية أخرى أنهم تسعة.. تحت القدمين يركع كافة فصائل الطيور من كل رتبة أو فصيل .. معذرة هناك بعض الطيور الصغرى تستمرأ التطفل حول القدم ومخالبه الضخمة .... استمرأوا الخنوع .. الصمت .. السمع الطاعة لكل ما يريده "الطائر الخرافي" خوفاً وطمعاً.

(٤)

□□ حول فتحة الإست يعيش حليف "الطائر الخرافي" ، حليف يعد ثمرة لأشتات مجتمعات من هندسة وراثية وسياسية .. وحين تخرج من فوهة الإست ضرطة جهنمية تكون محملة بصكوك الفتك والحماية .. المسافة بين فتحة الإست وأقدام الطائر ذو المخالب الخرافية ، باتت ملكاً مشاعاً

للعربدة والإملاء ومدونات الشدو بالشعارات ، ثم جحيم الراجمات.

(٥)

□□ ماتت طيور الحكمة ، لم يعد هناك فلاسفة بين الطيور تستطيع أن تشدو بالحق والخير والجمال .... الببغاوات الجدد تتحول إلى أبواق تنشر معايب الظلم والشر والقبح طوعاً وكرهاً . *رحمك الله يا طائر الحكمة !* .

(٦)

□□ **الهدهد الجديد**" توتي بوس "يستغرق التكيف والتواطؤ مع "الطائر الخرافي " دونما منطق ، أذن الطائر الخرافي تسعه ، الهدهد يزداد انسلاخاً عن موطنه الأصلي ، يبكي إمبراطوريته الغائبة في أحضان الإمبراطور الكوكبي الجديد .. أصبح الهدهد " توتي بوس " أشهر طائر تابع مدلل تحت مسميات زائفة .. الشريك الحكيم ... الحليف ... ليت الهدهد المخدوع يصيح بالحرية كجاره الديك ، مع أن صياحه يعقبه مثول فيتحول إلى داجن تابع أيضاً!.

(٧)

□□ استطالت مدة عربدة " الطائر الخرافي " لا تبرير لمنطقه ، فلا اسم ولا صفه ، ولا لون ولا طعم بل ولا رائحة مرغوبة يجمع عليها أهل الغابة .. أخيراً وجدوا له اسما وصفة :

- **الاسكندر الديمقراطي الهولاكي** ....
وصفته استبداد أحادى يلف غابات الكون بأكمله .

(٨)

□□ منطق الطير في الغابة يختفي .. يسود الأركان جميعاً الزيف الوعود ... الخداع .. الخوف والهلع ، الصمت الخزى ... التبعية الجمود .. نظام كوكبي قهري يقوده "الطائر الخرافي" المتناقض مع نفسه ، في شدوه ، في طيرانه ، في تحليقه ، في جبروته وقهره .

(٩)

□□ مجلس حكماء الطير ، ومعه كل فصائل الغابة تؤمر بأمر الطائر الخرافي : أفعل ولا تفعل .. اصمت .. حلق .. سدد مخالبك أضمر حقيقة ما تشدو به .. الطائر الخرافي أكثر السعداء بالطاعة العمياء .. الاستسلام ، التبعية الركود.

(١٠)

□□ توسع الطائر الخرافي في غيه وعربدته ؛ استبداده .. تململ البعض من تكرار محاولة الفكاك من تحت جناح الطائر أو سطوه أقدامه أو بين مخالب أظافره .. هيهات .. هيهات .. لم يعد إلا الأمل في التوحيد ومحو الفرقة ، فقد

يُقينا الله أشراره الدائرة ، أو التي يخطط لها .. أو ربما يصاب بالعطب والأفول ، فتتوارى أنهار الدماء ، وجبال النار ، وتتبت بالحق والسلام جداول الياسمين .

(١١)

قالت القردة الملتفة بأعلى شجرة في الغابة لمن حولها :

- أبلغتني كلاب الغابة بنذر حدوث زلزال يتجاوز في قوته أضعاف كل زلزال مضى .

قال الهدهد الحكيم الهارب من قمع "الطائر الخرافي" وجهنم توابعه :

أفيدكم بأن الأرض ستبلع الطائر الخرافي وتريح مملكة الطير منه.

(١٢)

أوفد الطائر الخرافي مستشارته " كوكا هايس " لكل المناطق يطلب إجابة شافية عن سؤال يؤرقه :

لماذا تكرهونني ؟ أنا الأفضل من كل ما وجد في الكون ، حتى أنني الأقوى من التنين الخرافي ! ...فجأة اجتمعت- ولأول مرة من ربع قرن مملكة الطيور على إجابة دامغة

تقول : لا شك أن موطن الكراهية ، بل مصدرها هو لعبكم بمصائرنا وتعضيدكم للظالم الغاشم ، ثم قمع لا يقل ألماً عن قمع رءوس ممالك الطير لنا .

(١٣)

□□ انتفخت أوداجه، أومئ الطائر إلى ذنبه عند فتحة الإست – وهو الحليف الحقيقي ، والى " توتي بوس " تابعه الببغان ، وقال لهما لتنشر مستشارتي " كوكا هايس " رسالتي في كافة المناطق قراري العولمي :

بكل الحرية وبكل الديمقراطية عرفت جوابكم بشأن كراهيتي ، فلتنطلق من تحت جناحي أسلحتي الفتاكة .. اسقطوا الأنظمة في كل غابة عاقة، تدخلوا دون داع .احترقوا واحرقوا ..

عبثوا الإفساد والفساد ، الإصلاح شعاركم .. ثم افتحوا المزيد من السجون الديمقراطية لكل من يقول للطائر الخرافي لسنا معك !.

(تمت)

***

٧١



(١)

□□ نجح إبراهيم عطية ومعه مجلس إدارة نادي الأدب بمدينة "الأحلام " في تنظيم ندوة للنخبة المبدعة ؛ فقد هز كيانها وزلزل مشاعرها أبشع عدوان وأطوله في الزمن المعاصر من قبل إسرائيل ، معذرة ومن هم وراء إسرائيل على حد تعبير الزعيم الراحل جمال عبدالناصر. المكان قاعة صغيرة ومستمعون جيدون.. عندما بدأت وقائع الندوة ، قُطع التيار الكهربائي .. أضئ المكان

بشعاع فكرة النخبة المستديرة .. أعيد التتار .. لم يطمئن الحضور لمكر أو إهمال متعمدين ، فوفروا بعد قليل كشافات طوارئ الإضاءة ، بل أكبر عدد من الشموع .

(٢)

□□ استهل مدير الندوة وقائعها بتقـديم أصـوات الشـعراء وصرخاتهم .. جاءت مؤثرة وحرة ، فحواها انتهاء زمـن التقاعس .. التخاذل .. وبداية التهيؤ **للوحدة الموقف ..** ليس شرطاً أن نجيش الجيوش ونلقي بالعدو مباشرة في البحر أو في تيه الصحراء .. تنفس الحضـور الصـعداء إذ جـاءت حروف القصائد وقفة مدركة للعقول تناغمت معها القلوب .

(٣)

□□الوقت هو فترة راحة قصيرة جـداً يُعقـب بعـدها المتناظرون ؛ هيأ للمناظرة الأدباء " عبدالله مهدي " مـع زميليه مجدي جعفر وأحمد محمد عبده ، مـرت دقـائق قليلة ثم خرجت إلي النور بكائيـات نكبـة لبنـان بـين المتحاورين من النخب المكلومة.

(٤)

□□ في ضوء هادئ .. بادر صاحبنا رئيس فرع الكتّــاب " مدينة الأحلام " بالإنابة فقال :

... لأن ميدانكم هو الكلمة ونحن شعوب تنمي لدول ذات سيادة فلتأذنوا لي بأن نحذف من قاموس لغة الأمة هذه الكلمات : (الاستسلام للآخر ، عربدة السلام الأُحادي ، الشرق الأوسط ، الصهيو أمريكي العولمي الجديد .)

فجأة تعالت مداخلة من الأديب " سيد الخميســي " وهــو يقاطع صاحبنا :

- كيف ترى حكومات الأمة أنهار الدم ، والقتــل بــل وإعادة القتل وترويع الآمنين ، أمور تحــدث علــى مدار الساعة تحت دعوى الدفاع عن النفس واستعادة أسير من هنا وهناك أليس في سجون إســرائيل مــا يناهز عشرة آلاف من أسرى بعض الدول العربيــة فهل شنوا الحروب لاستعادتهم !! أرجو إضافة كلمة الدفاع عن النفس التي تخفي بشاعة الهجوم إلي مــا ذكرت من كلمات تحذف، لقد كبلتنا وخدعتنا !!.

- **أخذ الكلمة من مدير الندوة الأديب الشيخ " بهي الدين عوض " فقال :

أخيراً ، كشفت نكبة لبنان بعد نكبات : البوسنة والهرسك .. والأفغان والعراق .. وما يأتي .. عن هجمة صليبية تقودها أمريكا الكوكبية .. لننتبه كفانا عاطفة جياشة يعقبها صمت غمط الحق .

رد عليه الناقد الشاب د. على مطاوع :

-...اعترض فقط على المسألة الصليبية – هنا – لأن لبنان النكبة بين عناصر طوائفه من المسيحيين ، أنها هيمنة صهيو أمريكية بأداة إسرائيلية ، وهذا لا يمنع أن إسلامنا مستهدف بشكل مباشر وغير مباشر .

التقط الخيط الحواري الكاتب المسرحي " محمد سعد بيومي " فقال :

- ...إسلامنا يرفض التعصب المتشدد والعنف المتطرف، وكل الحضور يتفقون معي أننا أكثر من شرطة الحكومات في مناهضة تلك الزمر التي تتسبب في وصفنا بالإرهابيين ..

هم جهلاء وطلاب سلطة فحسب ، أنبه الحضـــور إلـــى حتمية التفرقة بين مقاومة المحتل لاغتصـــابه الأرض ، وبين فظاعة ترويع الآمنين ..هو إرهاب دولة وإرهـــاب أفراد.

وعندما طلب مدير الندوة الكلمة من الشاعر حسين على محمد ، هب يقف شامخاً وقال :

-...المداخلات التي سبقتني تنبئ عن يقظة عقل الأمة ، لكني أتساءل إلي متى سنترك الأجنبي يطرح أي إمـــلاء يروق له ؟ .. والى متى تظل نخب الأمة غير العسكرية بعيدة عن أسس الإصلاح ، سبيلنا امتلاك أسباب القوة ، سيخشانا الآخر المتربص دون حرب، وتصدق فينا مقولة توفيق الحكيم : الكل في واحد وعندئذ نرفع راية الأمـــة وأراها قريبة .. شريطة حرية متكاملة تنبع من داخلنا ..

أمسك بناقل الصوت الشاعر صابر عبدالدايم وتحدث في اطمئنان :

-...إذاً الوقوف عند الاستنكار والشجب والإدانة لن يحل المشكلة ، كذلك الحروب وويلاتها .. تعرفون أن الجهاد

ليس سبة في جبين الأمة أو وصمة، لكنه قرار يُفـرض ضد من يحاول المساس بحبة رمل مـن أرضـنا .. إن وحدة الموقف كحشد الجند ، هو تأهب يكشـف جـرائم الحرب المُغلقة بالدفاع عن النفس ،عندئذ سيزدجر كـل ظالم غاشم وتنعم بالسلام مدائن الفجر.

-... فجأة ، دلفت إلى داخل القاعة ناشطة المرأة " زينب المغاوري " معلنة اعتذارها للتأخير وقالت :

لنأخذ العبرة من فنزويلا ، بل النصح من رئيسها حـين قال تكتلوا واتحدوا مثلما كافح ناصر في سبيل ذلـك .. وعندما توقفت عن الرأي خـرج المستشـار الإعلامـي هادي سلام عن صمته ووقف ينطق بالحكمة :

... فلسفة التاريخ تعظ : أفول الحضارة الإسلامية سـببه الفرقاء وتربص الأعداء .. التاريخ يعيد نفسه الآن .

التقط خيط الحوار الخير مراسل قناة جزيـرة العـرب ، فبدا يعكس في كلمته موضوعية قناتـه الناقلـة لصـور الأشلاء وانهار الدماء وجبال الهدم :

-...ليتني في وقت لاحق أقدر على نقل الوقائع المهمة في تلك الندوة .. وأريد لفت أنظاركم إلي قيود مفروضة من الآخر إنها سدود لا تنقل البشاعة الدموية كاملة ، فالبارجات والراجمات والطائرات الإسرائيلية تتلذ بتكرار قصف ما قصفته .. مذبحة قانا الثانية واحدة من عشرات

المذابح المروعة الماثلة، أؤكد لكم أن الفئة القليلة المقاومة من جند حزب الله تجابه العدو ببسالة على الأرض وتكبده أفدح خسائر تعدل خسائره في جولات الصراع العربي الإسرائيلي جميعاً، إنها إرادة الله ، مع كل مؤمن يدافع عن أرضه .. حزب الله منه الوزراء والنواب في الحكومة اللبنانية ، فكيف تردد بعض وسائل إعلامنا ... إنه مغامر .. مخرب .. إرهابي ؟! نظر مدير الندوة إلى معصمه ، ربما قاربت الندوة على الانتهاء ، لكن صوت الكاتبة الصحفية " دعاء السنجري " راح يعلو وهي تبادر :

-...استعير مع زميلتي الإماراتية " مريم الكعبي " فضحها لبربرية الآلة الجهنمية وعلى الأخص مع

٧٩

المدنيين من نساء وأطفال وشيوخ ولم يتحدث ، أحد – هنا – ومعنا القوانين حتى ما بعد الفيتو !! لفضح جرائم الحرب ، ما ذنب الأطفال والنساء والشيوخ من المدنيين ، إن عمدية تجريب أمطار السلاح الخارق ، والحارق ، والسام ، والعنقودي الذكي، الماحق من كل حجم ووزن .. كلها حولت لبنان في قرابة شهر إلى أكبر خرائب معاصرة.

قاطعها في أسلوب إذاعي " محمد السبع " يعكس مهنته :

–...أضيف إلي روائع ما سمعت اليوم من رؤى وأفكار .. الوقت هو الفعل الخلاق لمجهودات الدعم الإنساني في شتى صوره ، وأخص الأطفال ، نحن بحاجة لصندوق ألبان الآن أهم من صندوق ذخيرة .

أشار مدير الندوة بآخر النخب المتحاورة ، كان صوت " نجلاء محرم " يجلجل :

–...عرفتموني أقص القصص وأسرد الحكايا ، لكني باسمكم أطالب بوقف إطلاق النار، كفانا الدمار، وأستعير معكم خير ختام لأهم ندوة عُقدت بالمدينة بهذين البيتين :

ويارب من اجل الطفولة وحدها
أفض بركات السلم شرقاً ومغرباً
وصن ضحكة الأطفال يارب انها
إذا غردت في ظامئ الرمل أعشبا

****

الفهرست